

الصدرية

ان تفسيرات الجوهري (ج 1 ، ص 316)
والفيروزآبادي (القاموس ، ط كلكتا ، ص 576)
عقيمة الجدوى . اذ يقول الاول : « الصدرية التي
تلبس » ، ويفسرهما الثاني بكلمة الثوب . وارى انها
تشير الى ما تشير اليه الكلمة الفرنسية Veste
قيست ، مثل كلمتي الصدرية والصديري اللتين
سنتحدث عنهما بالتفصيل .

الصدرية او الصدرية

لا وجود لهذه الكلمة فى القاموس .

واننا نجد فى مذكرات دارفيو (ج 5 ص 282 ،
283) : « بقية ثياب الاتراك فى مدينة الجزائر
تتخصر فى قمصلة لا اكمام لها ، والقوم يسمونها
صدرية Sadderie . وهي محرومة من تقوية امامية
ومن فتحة خلفية ، ولكن لها ثلاث فتحات ، الفتحة
الاولى لامرار الراس ، والفتحتان الاخريان لادخال
الذراعين . وهم يدخلون الايدي بايدي الامر من
الفتحتين ، ويرفعون الذراعين بلطف وهوادة ،
فتنساب القمصلة دون ان يشمر بها شاعر ، اما
الرأس فيمر من التقوية الوسطية ، وهذه الصدرية
تصافح الجسم مباشرة » . وتقرأ فى رحلة النقيب
ليون (اسفار فى الشمال الافريقي ، ص 6) كلمة
« صدرية » ، Sidrea ويعرفها بانها صدارى
يلائم الجسم تماما ، وهو محروم من فتحة امامية ،
وليس له سوى تقويرتين لامرار الراس والذراعين .
وهذا الثوب يلبسه معظم سكان طرابلس الغرب .
ويتحدث الرائد دنهام (رحلات فى شمال افريقيا ،
ج 1 ، ص 27) عن صدرية من الحرير « Sidiria »
تلبس تحت البنس ، راجع كائين (القاموس ، ج 2 ،
ص 340 ، حول كلمة جوستيللو Justillo
اذ يقول ان الصدرية لباس تحتاني يلامس الجسد ،
ولا اكمام له . وترجم دونباي (النحو المغربى
العربى ، ص 82) كلمة انتريلولا Interula
بكلمة صدرية او صدرية .

وهذا الثوب كان يرتدى ايضا فى مالطة ، وما
تزال القرويات حتى ايامنا هذه يرتدين صدريات لا
اكمام لها فى هذه الجزيرة ، وهن يسمين واحدها
صدرية Sidria . (راجع فيسكيه ، رحلات الى
الشرق ، ص 6 ، وانظر فاسالي ، اللغة المالطية
مج 610) .

الصديري

لا وجود لهذه الكلمة فى القاموس .

ولكننا نقرأ فى بحث الكونت دي شابرول (وصف
مصر ج 18 ، ص 108) : « الصديري مشد
صغير Petit corset لا اكمام له » . ونطالع
فى كتاب لين (لين ، المصريون المحدثون ، ج 1 ،
ص 39) : « ويرتدى بعض الناس فى الشتاء ، او
بصورة عامة لدى حلول البرد ، صديريا ، اي سترة
صغيرة لا اكمام لها ، مصنوعة من الجوخ ، او من
الحرير والقطن ، ذات خطوط ملونة » . ولا ارتاب
مطلقا فى كون هذا الكساء هو الذي يتحدث
عنه بوكوك Pocoke فى كتابه (وصف الشرق ،
ص 327 ، ج 1 ، وصف الشرق Beschijving van
hat Oosten فىقول : « ان الحلة التركية
تتألف قبل كل شيء ، من نوع كساء قصير لا اكمام
له ، منسوج من القطن او من التيل ، ويكون هذا
الثوب احيانا مقفلا من الجهة الامامية ، ولكنه مثبت
باحدى الجهات » . راجع هيئة الكساء هذا فى
كتاب بوكوك السالف الذكر ، ج 1 اللوحة 68 .

الصقاع ، الصوقمة

يفسر القاموس (ط كلكتا ، ص 1051) كلمة
صقاع « بخرقة تقي الخمار من الدهن » والبرقع
كالصوقمة . اما ابن جنى (شرح ديوان المتنبي ، مخ
126 ، ص 103) فيميل الى كلمة صقاع بمفهومها
الثاني من المفهومين المذكورين فى القاموس . اذن
فالكلمة تشير الى ما يسمى ببرقع ، وكلمة صقاع
تشير ايضا ، كما تشير كلمة صوقمة ، الى قطعة من
القماش تقي الخمار الدهن الذي تدهن به المرأة راسها او
تغطره . وعلى هذا فالمسألة هي مسألة طاقية .

الصولق (1)

يخبرنا المقرئ (وصف مصر ، مخ 372 ،
ص 350 ، 351) ان السلطان والامراء والجنود كانوا
يلبسون الصوالق على الاقبية ايام حكم السلالة
التركية (الجركية) : صوالق بلغاري كبار يسع
الواحد منهم اكثر من نصف وبة (2) غلة مفروز فيه
مندبل طوله ثلاث اذرع . وهذا النص الذى سبق
لكتاتير ان ذكره (تاريخ السلاطين المماليك ، ج 2 ،
ق 1 ، ص 152) يزودنا بجمع كلمة صولق وهي
صوالق التي ينبغى اضافتها الى القاموس .

وبالرغم من ان هذا التخمين يبدو احتماليا ،
فانني لن اسكت عن دونباي (النحو المغربي العربي
ص 82) وهو يكتب الكلمة (مضمه) (كذا) وينطقها
مضمه . وهو يفسرها بأنها حزام من الجلد :
« Cingulum ex corio, une ceinture de cuir.

الطربوش

ينبغي التمييز بين الطربوش الذي يلبس في
مصر والطربوش الشائع الاستعمال في سورية
والاقطار الشرقية الاخرى .

ويرى لين (المصريون المحدثون - ج 1 - ص
41 - 42) ان « العمامة تتألف حاليا في مصر من
ثلاث مواد المادة الاولى الكلوتة الصغيرة المسماة
طاقية - والمادة الثانية الطربوش الذي هو طاقية
(او كلوتة) من الجوخ الاحمر - الملابس للرأس كل
اللامسة والمزود بقرنعة من الحرير الازرق العاتك -
اما المادة الثالثة والاخيرة فهي القطعة القماشية الطويلة
التي تلف حول الطربوش » .

ويقول فيسكيه (رحلة الى المشرق - ص 182
- 182) : « ان طربوش مصر هو الكلوتة المستديرة
المصنوعة من الصوف الاحمر اللبد المنتهية بخيوط
حريرية قلت او كثرت » . والنساء ايضا يلبسن
الطربوش (لين - المصدر نفسه - ص 58) . ونطالع
في كتاب الف ليلة وليلة (ط مكناتن - ج 1 - ص
165) : وكان عليه كما ذكرنا الطربوش والشاش
(العمامة) . (راجع لين ، الف ليلة وليلة ، ج 1 ،
ص 324) .

وجاء في رحلة فنسان نبلان الشهيرة (ج 2 ،
ص 139) : ان نساء القاهرة يلبسن « طاقية صغيرة

راجع كذلك تعليقه كاترمير التي يستخلص منها
ان كلمة صولق كانت تشير الى جيب جلدي كان
يضم الى الحزام او المنطقة من الجهة اليمنى .
ويظهر من عدة نصوص من كتاب الف ليلة وليلة ان
حافطة النقود كانت تشد ايضا الى الصولق .

المضامة

لا وجود لهذه الكلمة في انقاموس .

ويقرر هوست في كتابه (اخبار من مراكش ،
ص 115) : ان الفرد المراكشي يلبس فوق القفطان
اما حزاما من الحرير واما مضمة Modhéma
اي حزاما جلديا بابزيم ، ويلبسه رجال البلاط
وجلساء الملوك بمشابة زينة ، راجع اللوحة 15 ،
الصورة 3 ، ولكن بعض الناس لا يستفنون عن
المضامة ، لانهم يلعبون اثوابهم بواسطة هذا الحزام ،
ويدونه تربكهم ثيابهم اثناء العمل » . ونرى من
اللوحة ان القوم يحملون مندبلا في هذا الحزام .

ولا ريب ان هذه الكلمة عربية الاصل ، واعتقد
انها الكلمة المؤنثة من الصيغة الثالثة من فعل ضم » .

وافترض كذلك ان هوست ضل في كتابتها
مضمة ، في حين انها تلفظ جيدا Modhéma
وذلك لان « تلفظ في المغرب بـ ايه » .

اذن فالمضامة تعني تماما :

« Res unam rem cum alià coniungens »

اي انها حزام يجعل شطري الجهة الامامية يتلامسان ،
او ، اذا صادفت هوى في نفوسنا ، هي الحزام الذي
يجعل الثوب الواسع يلاصق الجسم .

(1) يرى هوست (رحلة الى مراكش ، ص 119 Hôst, Nachrichten von Marokos)

ان كلمة صوالف Sualf التي لا وجود لها في القاموس تشير الى نوع زينة رأس ، نوع عمارة
شبية بما يدعى عزابة . ولكيلا يظن بان هذه الكلمة تدل حقيقة على نوع عمارة فانني ساورد النص
التالي لدييكو دي هيدو (خطط مدينة الجزائر ص 27 ، مج 4) التي تثبت لنا ان معلومات هوست
خاطئة . فنحن نقرا فيه : « جميعهن ، بصورة عامة ، لهن عادة قص كل شعورهن بالموسى ،
الشعور الموجودة حول العنق وحول قفا الرأس ، حيث البناقة لا تصل ، وهن يقصصن ايضا جزءا
من شعر الجبين : بحيث تبقى لهن من جانبي الرأس خصل من الشعر ممشطة بعناية تناسب على
الصدر : وهن يسميها صوالف .

ويكتبها بيدرو دي الكالا (مفردات اسبانية عربية) (صالف وصالف) . ولكن كانيس Canès
يكتبها (سالف والجمع سوالف) ويفسرها بأنها خصل الشعر .

(2) الوبية هي مكيال حنطة وهو يبلغ اليوم سدس الوردب (راجع لين المصريون المحدثون ، ج 2 ،
ص 417) .

كعمرة للرأس طاوية حمراء تتدلى الى الجانب - وتثبت في الرأس بقطعتين من القماش مرقتين». وفي موضع آخر (ص 82) يقول عن سكان بعلبك : « يلبسون على رؤوسهم الطاوية الحمراء التي تتدلى الى الجانب ». ويقول بكنكهام (رحلة الى بلاد ما بين النهرين ، ج 1 ص 151) عن رجال اورفه : « يلبسون الطربوش الواسع الذي يتدلى الى الخلف بصورة عامة ». ولعل اوليفيه يتحدث عن الطربوش ايضا في كتابه (رحلة الى الامبراطورية العثمانية ومصر وفارس - ج 4 ، ص 327) حين يقول عن نساء بغداد : « ان زينتهن الاعتيادية الطربوش المخملي الاسود الكبير الذي يتدلى الى انوار - المنتهى بقنزعة من الحرير الاسود او الذهب : فاذا كانت القنزعة من الذهب فان المغارز تكون مغطاة بالحرير او القصب . وهذه الطاوية مثبتة بالرأس بشال كشمير (اللوحة 27) . ولكنني لا اريد ان اؤكد ان القنزعة هنا هي قضية طربوش - لانني لم اقع في موضع آخر على ان الطاوية تكون من المخمل الاسود . وسأجعلكم تلاحظون ايضا ان الطربوش في الساحل السوري لا يبدو انه يختلف دائما عن الطربوش المصري - ذلك لان ريشتر في كتابه (الرحلة - ص 123 - الخ) يذكر في وصف الحلة التي اشتراها من بيروت - للولوج الى داخل سورية : « هناك فيس احمر يدعى هنا طربوشا اي طاوية صغيرة مدورة » .

ولعل هذه الكلمة حين استعملت لم تصل الى العرب الا في مطلع القرن السادس عشر - ولم تكن الا تحريفا لكلمة سربوش الفارسية - وهي في العربية شربوش ... حقيقة ان هذه الكلمات تشير الى نوع من عمرة الرأس مختلف - ولكن كلمة سربوش الفارسية في غاية الغموض اصلا - ما دامت لا تشير الا الى زينة رأس على وجه العموم . فمن الممكن كل الممكن - كما اعتقد - ان هذه الكلمة قد طبقت على انواع من عمارات الرأس .

وتسمى هذه الطاوية في الجزيرة العربية ب (فس) وكذلك تدعى في القسطنطينية . وكان الناس يسمونها قديما في مصر شاشية - وهو الاسم الذي ما تزال تحمله في المغرب . ومع ذلك فان كلمة طربوش ليست مجهولة في المغرب - ذلك لان دونباي في كتابه (النحو المغربي العربي - ص 83) يترجم كلمة طربوش بكلمتي Galericus nautarum وتسمى هذه الطاوية في اسبانيا غفارة .

على الرأس من قماش غالي الثمن يعلوها قيطان مبروم في نهايته ندفة او قنزعة » . ونجد في بوكوك (وصف الشرق ، ج 1 ، ص 328) ان سواد الشعب يلبس بدل العمامة الطاوية الحمراء التي تثتصق بالرأس كل الالتصاق . وهي تلبس ايضا من قبل الاعراب (البدو) ويلبسها كذلك المولدون في مصر - ولكن التجار وحاشية الامراء العرب والقسس الأقباط يستعملون الطاوية الاخرى » . وجاء في كتاب الكونت دي شابرول (وصف مصر ، ج 18 ، ص 108) : الطربوش هو الطاوية او الكلوتة الكبيرة الملبدة - التي تغطي الرأس حتى الاذنين » . وبعد ذلك في وصف ازياء النساء (ص 113) : « الطربوش هو الغطاء الذي يوضع فوق الطاوية » . ويخص ستيفنس في كتابه (حوادث سفر في مصر - ص 225) بالذكر « الطربوش الاحمر » من بين ملابس احد تجار القاهرة . انظر هيئة هذه الطاوية في كتاب بوكوك - اللوحة 58 - وراجع كتاب ج فيسكيه .

وها قد رأينا بفضل نص اورده بوكوك ان هذه الطاوية هي ايضا يلبسها بدو مصر . والواقع ان منتكازه يقرر في كتابه (قصة رحلة الى اورشليم - ص 112) : « ان فرسان البدو يلبسون طاوية صغيرة من التيل » . ونجد في كتاب كوبان (درع أوروبا) ما يلي : اما العوام فيستترون بقطعة طويلة من القماش الصوفي يلفونها في كتاب كوبان (درع أوروبا) ما يلي : « اما العوام فيستترون بقطعة من القماش الصوفي يلفونها حول الجسم (بردة) مع طاوية حمراء مزودة بقطعة من التيل الابيض والاسود » . ونقرا في كتاب ستيفنس (حوادث السفر ، الخ ، ج 1 ، ص 224) : « وسرعان ما ارتدى بول الحلة العربية البدوية الاعتيادية : القميص القطني الازرق والطربوش والنعلين البدويين » . ويؤكد بارثي في كتابه (جولة عبر صقلية والشرق ، ج 2 ، ص 77) : ان البدو المجاورين للأسكندرية كانوا يلبسون « الطاقيات الحمراء الصغيرة » . وان ما يميز الطربوش المصري عن الطربوش السوري وطرابيش البلاد الشرقية الاخرى - هو ان الطربوش السوري لا يلامس الرأس تماما - ولكن له نهاية متدلية الى الوراء او الى الجانب . ونحن نقرا في احد كتب بكنكهام (رحلة الى بلاد ما بين النهرين ، ج 1 ، ص 6) : « هناك طربوش واسع - او طاوية حمراء - تتدلى الى الوراء - على الرقبة والكتفين » . ويقول ريشتر في كتابه (رحلة الى الشرق الاوسط ، ص 68) عن سكان عكا : « يستعملون

الطرحة

سبق لكاترمير ان زودنا في كتابه (تاريخ السلاطين المماليك - ج 1 - ق 2 ص 21 - 22) بتفاصيل حول نوع الخمار المسمى طرحة . ونلاحظ في تعليق هذا العلامة التعمق العلمي الذي يميز كل كتاباته . وقد تحدث كذلك سيلفستر دي ساسي في كتابه طرائف غريبة - ج 2 ص 269) عن الطرحة - واستشهد به فريتاك . وسأحرص على اعطاء هذه المعلومات التي استصفاها هؤلاء العلماء شكلا - ان يكن باهتا من الناحية التاريخية فانه خلاف ذلك من جهة اضافة ثمرة قراءاتي الخاصة اليه .

ولنشرع بوصف طرحة الرجال . فانها خمار Voile empesé مصنوع من الشاش الموصل الذي يلاث على العمامة - او يطرح على الكتفين فقط . فيتدلى على الظهر (والطرحة تشبه الطيلسان - وان التباين الذي ظن دي ساسي انه قد عثر عليه بين الطرحة والطيلسان هو ظن وهمي . اذ يرى هذا العالم ان ما يميز الطرحة من الطيلسان ان الطيلسان يوضع على العمامة وان الطرحة تطرح على الاكتاف . وان كلمات المقريري (لدى كاترمير) « فوق عمامته طرحة سوداء » و « البس طرحة على عمامته » تؤكد ان هذا الافتراض افتراض لا يقوم على اساس . ونحن نقرا كذلك في تاريخ مصر (مخ كاترمير) : « حضر القاضي وعلى راسه طرحة » . وقدما كان الناس يلبسون الطرحة مع العمامة (عمامة - شاش) كما بوسنا ان نشهد ذلك في عدة نصوص للمقريري وفي مسالك الابصار ولدى النويري - وقد استشهد بها كلها كاترمير .

ويظهر ان الطرحة نفسها قد استعملت استعمال العمامة في المصور الحديثة - لاننا نجد في وصف مصر (ج 18 - ص 109) : « الطرحة قطعة من الشاش الموصل او جزء من الشال الذي ينساب الى قفا الراس بعد ان يكون قد التث عدة لوثات حول الطربوش - وهذا النوع من الخمار يقف بارتفاع الكتفين ويحدث تأثيرا في غاية الحلاوة : ويكون احبانا مطرزا او مرصعا بالذهب في حواشيه » .

وكانت الطرحة لباس القضاة الخاص - بل شعار قاضي القضاة . وقدما كان لا يحملها الا القاضي الشافعي . (السيوطي لدى دي ساسي - ص 267 -

مالك الابصار لدى كاترمير) . وفي عام 263 من ايام حكم املك الظاهر بيبرس - تلقى قضاة القضاة الأربعة السماح لهم باتخاذ الطرح . (المقريري - السلو - ترجمة كاترمير) . وهذا ما يؤيده النص التالي الذي استعيره من النويري (تاريخ مصر - ج 2 - ص 88) . اذ يقول هذا المؤرخ وهو يقص علينا اخبار حوادث سنة 716) : « فوض قضاء القضاة الحنفية بمصر للقاضي سراج الدين عمر بن شهاب الدين بن محمود وخلع عليه بطرحة على عادة القضاة » . ولكنني اجد من المحتم على ان احملكم على ملاحظة ان هذا الامر لا يطابق البتة احد نصوص السيوطي (حسن المحاضر - مخ 113 - ص 346 - حوادث عام 773) حيث نقرا : « وفي هذه السنة اراد السراج الهندي . قاضي الحنفية ان يساوي قاضي الشافعية في لبس الطرحة وتقرير القضاة في البلاد وتقرير مودع الايتام - فاجيب الي ذلك . فاتفق انه توعدك (1) عقب ذلك وطال مرضه الى ان مات ولم يتم الذي اراده » . وعلى هذا نرى ان شهادة ابن حبيب (دوة الاسلاك مخ 425 - ص 579) لا تدع اي مجال للشك بوفاء قاضي القضاة الحنفي سراج الدين الهندي حقيقة في عام 773 . فهل في المقدور حل هذه المعضلة بافتراض ان القاضي الشافعي كان هو وحده يلبس الطرحة بصورة اعتيادية - ان القضاة الثلاثة الآخرين لم يكونوا يلبسونها الا في المناسبات الرسمية ؟ والواقع ان القاضي الشافعي هو الذي كان يتمتع في مصر باحتلال مركز الصدارة - واليه كان يعهد الحكم على قضاة الطوائف الاخرى . (ليون الافريقي - وصف افريقيا - ص 706) وان الخطباء كذلك ا خطباء الجوامع والمساجد كانوا يلبسون الطرحة . (السيوطي لدى دي ساسي) .

واول من خلع الطرحة كلباس تشريف يكرم به عظماء الدولة وكبراء ضباطها كان الملك السعيد خان 676 (النويري لدى كاترمير) . ونقرا لدى النويري (تاريخ مصر - مخ 2 - ص 32) : « خلع عليه خلعة الوزارة . وكانت الخلعة جبة عتابي حمراء وفوقه فرجية زرقاء منسوجة (مقنذزة) وطرحة (مقايسة مع كلمة فرجية) . ويخيل الي ان طرحة القضاة كانت سوداء على الدوام .

وقد قلت آنفا ان الطرحة كانت مماثلة للطيلسان -

(1) ان التصريف الخامس لفعل وعك لا وجود له في القاموس . ويوسعكم رؤية مثال آخر في كتاب الف ليلة ويلة . (ط مكناتن - ج 1 - ص 43) .

(693 - 741) فاذا آمنا بما يقوله هذا المؤرخ فان هذا النوع من الخمار كان يكلف كثيرا - ما دامت كل طرحة كانت تساوي من خمسة الاف الى عشرة الاف دينار . على اني لا اصدق ان هذه الطرح الثمينة كانت تلبس من قبل العموم - لاننا نرى من النص التالي للمقريزي ان الطرحة كانت تلبس ايضا من قبل طبقة واطئة من طبقات المجتمع - وان هذه الطبقة في الاغلب الاعم كانت فقيرة - ومن هذه الطبقة كانت المومسات تلبس الطرح . فنحن نقرا في كتاب (وصف مصر - ج 2 - مخ 372 - ص 347) : وادركت سوق الشماعين عن الجانبين معمور الحوانيت بالشموع الموكية والفانوسية والطوافات (1) لا تزال حوانيتها

وهذه الملاحظة تحتاج الى بعض التحوير - لاننا نقرا للنويري (لدى كاترمير) : « لبس الطرحة والتي الطيلسان » . فهل الفرق بين الطرحة والطيلسان ينحصر في ان الكلمة الاولى تشير الى الطيلسان المقرر Voile émpesé ؟ فان ما يدعوني الى هذه العقيدة هو اننا نقرا للنويري (لدى كاترمير) : « يلبس الطيلسان المقور ويسمى اليوم بالطرحة » . ويتحتم علينا الان التحدث عن طرحة النساء . وهي كذلك خمار يوضع على الرأس ويتدل الى الوراء - ولكن هذا الخمار اطول من الخمار الذي يحمله الرجال . ويخبرنا ابو المحاسن (لدى دي ساسي) ان النساء في مصر قد لبسته ايام حكم الملك الناصر محمد بن قلاوون

(1) لا وجود لكلمة طوافة - وجمعها طوافات - في القاموس . واني بمنحي هذه الكلمة المعنى المشار اليه في ترجمتي اعتقد بعدم مجانبيتي للحقيقة كثيرا . ويخيل الي ان الاستعمال الجاري لفعل طاف يؤيد ذلك . ويقول المقري او بالاحرى ابن سعيد (راجع فريتاك - طرائف عربية نحوية تاريخية - ص 144) ان الطواف بالليل هم رمادة الشاب الحراس الذين يجوسون خلال المدينة - اثناء الليل لاقاء القبض على اللصوص . ويسمى ابن خلدون (راجع دي ساسي - طرائف عربية - ج 1 - ص 132 من النص) الجولات الليلية لهرون الرشيد بالطواف بالليل - والقضية نفسها مبحوثة آنفا (المرجع السابق - ص 131) بهذه الكلمات : تطوفه بسكك بغداد » . وهناك نصوص اخرى تشير بالتحديد الى الاستعمال الذي يصلح له السراج المسمى طوافه . اما هذا النوع المضحك من المصايح المسمى بالفانوس فراجع بشأن وصفه وصورته كتاب (المصريون المحدثون - ج 1 - ص 225 - 226) لمؤلفه لين .

وتشير كلمة زعر الى البوهيميين المدعويين كذلك بالرمادية . وعن المشاعلية راجع (كاترمير - تاريخ السلاطين المماليك - ج 1 - ق 2 ص 6) اما عن الزنجية فراجع (كوسان دي بير سفال - النحو العربي العامي - ص 161) الخ - حثالة الشعب . فنحن نقرا لدى ابن اياس (تاريخ مصر - مخ 367 - ص 44) « التف عليه جماعة من الزعر العياق » . وفي موضع آخر (ص 58) : « ومعه السواد الاعظم من الزعر والعشير » . وبعد ذلك (ص 138) : « ثم ان الزعر تزايد امرهم حتى انهم كسروا باب حبس الرجبة » .

وفي موضع آخر (ص 176) : « ومعه السواد الاعظم من الزعر وغيرهم » . وبعد ذلك (ص 414) : « نثر على الزعر الذهب والفضة بيده فاجتمع تحته الجم الحقير من الزعر والعياق (اي : القعد) . واخيرا (ص 477) : « ثار جماعة من العوام على المحتسب - امره (والى الشرطة) بان يقبض على جماعة من الزعر والمبيد ويقطع ايديهم . راجع كلمة عياق تعليقة وردت حول كلمة طرطور . وتعابير (اهل الذعرة - الذعارة - ذوو الذعارة) تشير الى نفس الصنف من الرجال . وان اميرا متحلا من الاخلاق - وهو محمد السادس الفرناطي - سماه ابن الخطيب في (الاحاطة - مخ دي كايانكوس ص 163) : « مالفا للذعرة » . ونقرا للمقريزي (لدى دي ساسي - طرائف عربية ج 2 - ص 26 من النص) : « وكان قد ثار بدمشق جماعة من اهل الذعارة والفساد وحاربوا عمال السلطان واشتد مراهم . وكان كبيرهم يعرف بابن الفاوود (وفي رحلة ابن بطوطة - مخ دي كايانكوس - ص 60) : « اتفق في بعض السنين ان اوتي امير الحاج بصبي من ذوي الذعارة بمكة قد سرق بمض الحجاج » . وتشير كلمة دعار كذلك الى البوهيميين . فنحن نجد لدى المقريزي (ايراد دي ساسي - طرائف عربية - ج 2 ص 29 من النص) « وصار في عدة وافرة من الذعار » .

اذن فكلمتا زعيرات الشماعين تعنيان بصورة خاصة : البوهيميين او المصريات - بائعات الشمع . والواقع اننا نعلم ان الراقصات العموميات (بائعات الهوى) هن في مصر من طبقة البوهيميات . ونرى فوق ذلك من نص المقريزي كلمة زعارة تستعمل بمعنى Scortatio

كتابه . على ان طرحة نساء حلب لم تكن طويلة طول طرحة السيدات المصريات . وقد رأينا معتمدين على نصين للمقريري المذكورين آنفاً وجوب اضافة كلمة جمع طرحة طرح الى القاموس . وانني اجهل كيف ينطق العرب هذا الجمع - ولكن طبقاً لقواعد النحو بوسمنا " طرح وطرح . (راجع دى ساسي - قواعد النحو العربي - ج 1 - ص 359 - 360) . وقد لاحظت كاترمير (كتابه السالف القيم) ان فعل تطرح قد تولد من كلمة طرحة : اي لبس الطرحة .

الطرطور او الطرطور

لقد سبق لكاترمير (تاريخ السلاطين الماليك ج 1 ، ق 1 ، ص 77) ان تحدث عن الطرطور . ولكن هذا العالم الجليل لم يتحتم عليه ان يؤلف كتاباً خاصاً عن الملابس عند العرب : اذن فنحن مرغمون على الدخول في التفاصيل والتوسع في منعطقاتها ، تلك التفاصيل التي كان بمقدور كاترمير ان يتحفنا بها هنا دون ريب لو انه شاء ، ولكنها لم تستطع ان تحتل محلها في نطاق شرح على احد المؤلفين .

لا بد ان كلمة طرطور تشير الى : طاقة عالية . وهذا ما ينم عليه اشتقاق الكلمة . حقيقة ان فعل طرطر لا وجود له في القاموس الا بالمعنى المجازي : معنى التمجيد *Gloriatus fuit* ولكن هذا الفعل يعني بصورة عامة الرفع او الرفع الى الاعلى *In altum sustulit elevavit* فنحن نقرا في كتاب الف ليلة وليلة (ط مكناتن ج 1 - ص 8) « طرطر ذيله وضرط :

In altum sustulit caudam suam et caca vit

وستحدث اول ما نتحدث عن طرطور النساء وبعد ذلك نتناول طرطور الرجال .

نحن نقرا في كتاب الف ليلة وليلة (ط مكناتن ج 1 ، ص 161) ان نصابة استطاعت ان تحصل من عشاقها على ملابس نسائية فالبست عشيقها الثالث الوزير (غلالة زرقاء وطرطورا احمر) . ونجد في هذا الكتاب : (يوميات رحلات السيد مونتوني ج 1 ، ص 381 *(Le journal des voyages de Monsieur Monconys*

مفتحة الى نصف الليل . وكان يجلس به في الليل بغايا يقال لهن زعيرات الشمايين لهن سيماء يعرفن بها وزى يتميز به وهو لبس الملاوات الطرح . وفي ارجلهن سراويل حمر . وكن يعانين الزعارة ويقفن مع الرجال السالقين في وقت لمبهم . ومنهن من تحمل الجديد معها . وكان يباع في هذا السوق في كل ليلة من الشمع بمال جزيل . وقد خرب ولم يبق به الا الخمس حوانيت بعدما ادركتها تزيد على عشرين حانوتا وذلك لقله ترف الناس وتركهم استعمال الشموع » .

ويخيل الي ان طرح النساء كانت تعمل من الكتان او من القطن - فاني اقرأ لدى المقريري (ج 2 - ص 372 - ص 354 - 355) : « وفي اوله كثير من البزازين الذين يبيعون ثياب الكتان من الخام والازرق وانواع الطرح واصناف الثياب القطن » .

وفي ايامنا هذه ايضا تعمل الطرحة من الكتان او القطن . اذ يقول لين (المصريون المحدثون - ج 1 ص 60) في معرض حديثه عن طرز لباس سيدات الطبقة العليا ونساء الطبقة الميسورة : « انهن يضعن على رؤوسهن اما قطعا من الشاش الموصل الى الابيض المطرزة الحواشي بالحرير الملون والمرصعة بالذهب واما قطعا من الكريشة الملونة المزركشة بأسلاك الذهب - الخ - او بأسلاك معادن اخرى » . وان الزراكش والتزيينات التي ذكرها لين توضح لنا - مهما بلغت ضالة هذا التوضيح - السمر الفاحش الذي تباع به الطرح طبقاً لرواية ابن المحاسن (وطرحة نساء الشعب ذات لون غامق وهي من الشاش الموصل او من الكتان . (لين - ج 1 - ص 64) . وتعمل الطرحة في مصر العليا من قماش صوفي اسمر . (لين - ج 1 ص 69) . راجع هيئة هذا الخمار في كتاب (لين - ج 1 - ص 57 - 64 - 68) .

واعتقد اننا واجدون الطرحة في حلب . فعلى الاقل نراها لدى برين في كتابه (الرحلات - ص 362) اذ يصفها بأنها قطعة كتان بيضاء مشدودة الى عمرونة الراس ومسبلة الى الورااء » . انظر الشكل 189 في

والواقع ان الطرطور تلبسه النساء المارونيات والدرزيات ، ولكنه لديهن مشغول من احد المعادن . وهذا ما يقوله باجيس Pagès بالحرف الواحد في كتابه « رحلة حول العالم ، ط بيرن 1783 ، ص 141 » Voyage autour du monde « الطرطور Tantoura هو عمارة رأس على هيئة مخروط من الفضة تلبسه النساء الدرزيات (2) . وذكر نابيه Napier كذلك الطرطور Tontura في كتابه « ذكريات عن سورية ، ج 1 ، ص 135 » (Reminiscences of Syria) ويسميه قرن نساء بيروت ، وبعد ذلك (1 ، ص 223) يقول : « الطرطور او قرن نساء لبنان » Tontura or horn . وهناك وصف مفصل عن الطرطور الذي تلبسه النساء اللبنانيات في كتاب المؤلف ذاته (ص 262 ، 264) . وان كاترمير حين اورد نص باجيس Pagès حسب من المحتم عليه احلال كلمة Tartoura محل كلمة Tantoura ولكن بالنظر الى ان الكلمة توجد كذلك مكتوبة بحرف النون (n) في كتاب نابيه Napier ، وان حرف الراء (r) وحرف النون (n) هما حرفان ينتميان الى نفس الفصيلا ويمكن ان يتورهما الابدال بسهولة في معظم الاحيان ، فلذلك لا يبدو لي من الاستحالة بمكان امكان النطق هذا اليوم بالكلمة بلفظ طنطورة لدى الدروز . وعلى كل حال فان هذه الكلمة ليست سوى تحريف لكلمة طرطور .

وقد تحدث عدة رحالين آخرين عن عمارة النساء المارونيات والدرزيات هذه ، ولكن دون ذكر لاسمها . فنحن نقرأ في رحلة لايت Light (اسفار في مصر والنوبيا والأرض المقدسة وجبل لبنان وقبرص ، ص 220) :
(Travels in Egypt, Nubia, Holy Land, Mount Libanon and Cyprus)
« ان النساء المارونيات والدرزيات يضعن على رؤوسهن انبوبة من القصدير او من الفضة على هيئة مخروط له

ان نساء الشرفاء يضمن « شريطا اخضر في طرطورهن » وعلى هذا فلا اتردد في التفكير بأن بلون Belon يتحدث عن الطرطور وهو الرحالة الذي زار مصر في الآونة التي كتب خلالها كتاب الف ليلة وليلة ، وذلك حين يصف الطاقية العالية التي تلبسها النساء المصريات اذ يتناول الموضوع في كتابه ملاحظات ص 134 (observations) على هذا المتوال : « ان ملاحظة طراز لباس الرأس الذي تتخذه النساء المصريات جديرة للغاية بالتسجيل ، ذلك لانه يمثل القدم والمعاتة ، كما نرى اشباهه مضروبة في الأوسمة وطع النقود . وقد سماه المؤلفون التاج المبرج او زينة الرأس على هيئة البرج (الاشرطة المبرجة)
Vittam turritam او Turritam coranum او Turritum capitis or namentum
كما لو قال القائل « عمارة رأس منصوبة على شكل برج » (1) .

وبالنظر لاهمية غرابة هذا الفطاء الراسي فان شعراءنا اللاتين القدماء لم يغفلوا ذكره فقد تناولوه بالوصف « راجع الصور المخطوطة في كتاب بلون Belon التي هي ولا مشاحة غير مستوفاة الشروط من الناحية الفنية .

واعتقد اني واقع على الطرطور في ساحل سورية في بيروت . فعلى الاقل يقول تيرنر في كتابه : (يوميات جولته في المشرق ص 81 ج 2) (Journal of a tour in the Levant - Turner) عن ابنة مضيفه في هذه المدينة انها كانت تلبس طاقية حمراء في غاية الارتفاع مبثوثة فيها انواع قطع النقود التركية امثال ما يدعى Rubiehs sequins وغير ذلك ، تلك القطع التي قد يرتفع عددها الى مائة وخمسين قطعة على اقل تقدير ، وهذه القطع النقدية مجمعة على اشربة حريرية معلقة بسلاسل فضية » .

- (1) يقول حافظ ابراهيم في وصف عمامة احد المميين :
يمشي وقد نصبت عليه عمامة كالبرج لكن فوق تل نفاق
(المترجم)
(2) ورد ذكر هذا النص من قبل كاترمير (في كتابه الرائع) ولكن في طبعة اخرى .

القرن على الجبين هن مارونيات ، وان اولئك اللواتي يحملنه على الاذن هن كذلك فى الاغلب الاعم مارونيات ولكنهن فى بعض الاحيان درزيات ، ونحن نقرا اخيرا فى موضع آخر (ج 2 ، ص 73) : « لقد اقمعت المرأة المارونية بخلع قرنها (وكان يرتفع فى خط مستقيم) وان تريني اياه ، وكان هذا القرن مصنوعا من الفضة ، دون زينة اخرى ، اللهم الا عدة نقوب صغيرة مستحدثة فيه على مسافات متساوية » . راجع كذلك (ريشر رحلة الى الشرق ، ص 90 - 91)

Richter, Wallfahrten in Morgenland

وستناول الآن بالحديث طرطور الرجال . وقد كانت الطاقة الاعتيادية لبدو مصر . فنحن نقرا فى كتاب الف ليلة وليلة (ط مكناتن ، 1 ، ص 365) ان سيدة فى مقتبل عمرها قالت للامير (شركان) بعد ان صرعه فى مبارزة ، وهي تضحك : « كانك طرطور بدوي تقع من بطشة » . والبطشة هي الضربة . وهذا المشمل موجود كذلك فى كتاب بركهات حول الامثال المصرية العربية المحدثه رقم 398 . ولكن قد اشير اليه بنجمة وهذا يعنى انه لم يعد شائع الاستعمال فى مطلع هذا القرن . ونحن نقرا فيه طرطوري يقع من لطشة . وعلى رغم بركهات وليو بل برغم فيشر (Arab. proverb) (M. Fleischer - de glossis Mabichtianis, p. 80) اذ يخيّل الي انه يذهب نفس المذهب ، فانسي لا يسعني التسليم بان (طرطوري) هو شكل آخر من طرطور اذ انني على النقيض من ذلك اترجم طرطوري بكلمتي mon tartour (طرطوري) اي الطرطور العائد لي . اذن فمعنى المشمل الذي اورده بركهات فى مذهبي « طرطوري يقع من ضربة واحدة (1) ومعنى ذلك انني رجل لين العريكة مطاوع بحيث ان اهون شيء يحملني على تبديل رأبي . وفى نص آخر من نصوص الف ليلة وليلة (ط مكناتن ، ج 1 ، ص 419) يقسم بدوي بطرطوره فيقول : وحبق طرطوري . وبطبيعة الامر يفضي بنا هذا الى البحث عن ماهية الطاقة العالية التي يلبسها بدو مصر فى القرن السادس عشر ، بل فى العصور الاقدم . وعلى ذلك فان مؤلف حكاية (فون خيستلا فى رحلاته ا ص 30 Van Ghistele (T, Votage van Mher Joos va Ghistele) يقول بالحرف الواحد : « انهم يحملون على رؤوسهم

من الطول حوالي اثنتى عشرة عقدة . ولعل هذا الجسم كان اضخم مرتين من بوق الحودي » (انظر الصورة) . ويقول الرحالة نفسه بعد ذلك (ص 232) فى معرض حديثه عن عروس امير جبل لبنان « كانت تبدو احيانا مرتدية حلة الفطر ، وقد زانت رأسها بقرن من الذهب مرصع بالأحجار الكريمة بدلا من القرن العادي الذي تحمله عادة نساء الجبل الاخريات A golden horn ونقرا فى رحلة تيرنر (ج 2 ، ص 57) : « لقد رايت بضع نساء مارونيات خارجات من الكنيسة (بيروت) وكن يلفتن النظر بقرن ضيق يبلغ طوله ثمانى عشرة عقدة . وهو مغطى بخمار ويرتفع على الجبهة فى نفس الاتجاه وعلى نفس الهيئة اللذين تصور بهما قرن الكركدن او الحيوان الخرافي كحصان بقرن فى جهته » . وان طبقة النساء تشير اليها ضخامة القرن والمادة المصنوع منها الجسم ذلك لان بعض هذه الطرايطر مصنوع من الفضة ، بل هناك طائفة من الطرايطر المصنوعة من الذهب » .

وفى موضع آخر (ج 2 ، ص 67 ، قبل لبنان) : « لقد سالت الاباء Padre كيف تعمل النساء لتثبيت القرن على هذه الصورة المرتفعة للغاية بحيث يغطي الجبين ، فأعلمني بان هذا القرن يثبت على قفا الراس بواسطة عصابة ، وان شريطا معلقا بهذه العصابة يحيط الجبين وان شريطا آخر يحيط بالمنق ، وان ثقل وضغط هذا الاكليل كانا فاحشين للغاية ، بحيث لم تستطع اية امرأة حمله ما لم تكن قد اعتادت عليه منذ الطفولة . اما نساء الطبقة العليا فيلبسن الطرايطر الذهبية . واما عوام النساء فيضمن الطرايطر الفضية او تنحصر اكاليلهن فى قرن اعتيادي او فى قرن مائل اذا كن ميسورات الحال فاستظمن توفير هذا القرن الهائل » . وبعد ذلك (ج 2 ، ص 68 و 69) : « فى هذه الجبال تلبس النساء نوع قرن لكنه اقصر وهو يمر فوق الاذن اليمنى ويرتفع بزوايا قائمة بدلا من الارتفاع بخط مستقيم . وقد صادفت احدى هاتهن النسوة فحملتها على خلع قرنها ، وذلك باعطائها بعض البارات . وقد وجدت ان هذا النوع من القرن مشدود بكل بساطة بغضل طرحة ، ويكون احيانا مثقوبا لاستطاعة تثبيته بسهولة بالغة » . وبعد ذلك (ج 1 ، ص 71) نقرا ان الرحالة على علم بان النساء اللواتي يحملن

(1) تعنى كلمة لطشة فى اللهجة المصرية ضربة لا هي بالمتينة ولا الخفيفة - تعليق بركهات . راجع ملاحظة فيشر القيمة فى كتابه : A. de glossis Habichtianis ص 80 . واعتقد وجوب احلال كلمة لطشة محل كلمة بطشة فى نص الف ليلة وليلة المذكور اعلاه .

من الثنيات ، لونها اسود ، وترتفع اطرافها من الاعلى مستديرة اكثر قليلا من اصبع .

ولم اجد الطرطور او الطاقية العالية للبدو المصريين المذكورين من قبل الرحالين الذين زاروا مصر بعد منتكازا . (زار منتكازا الشرق عام 1600) . ويخيل الي ان الطرطور لديهم قد اقيم مقامه الكلوته المسماة بالطربوش الذي كما سبق ان قلنا آتفا ، في معرض حديثنا عن هذا الاكليل ، كان يلبس سابقا من قبل الفرسان البدو ، ايام كان هذا الرحالة الايطالي موجودا في مصر .

ونحن نعلم ان البداة المصريين ، وهم رجال غلاظ الاكباد قساة القلوب محرومون من الحضارة ، كانوا يعانون ما يعانون من فظائع الازدراء والاستعلاء من جانب سكان مصر المتمدنين المزعومين . اذن فلن يبدو على شيء من الغرابة نظر سكان المدن الى هذا الطرطور الهائل الذي يضعه البدو على رؤوسهم نظرة مضحكة مستخفة ، لواقع انهم كانوا يضعون دائما على راس المحرم ، او على راس العدو المقهور ، طرطورا ويطوفون به على هذه الشاكلة الوحشية في الشوارع والدروب . والحقيقة اننا تقرا في تاريخ مصر للنويري (مخ 2 ، ص 99) : « ابو ركوة على جمل . وعلى راسه طرطور . وطيف به على هذه الصفة وخلفه قرد يصفعه . ثم صلب وضربت عنقه . وجهزت راسه الى البلاد . وفي موضع آخر (مخ 2 ، ص 108) : فحلقوا ذننه . والبسوه طرطورا . وسمروه . وطافوا به المدينة السلطانية (1) .

برابط حمراء واسعة . مصنوعة من اللباد المعرط في الكثافة ، الكثاف ، وهي على هيئة شبه بيضوية مسطحة . اذن فهذا الاكليل يماثل تاج الاسقف ، البرطل ، الطاية Mitre ولكنه ليس مديبا من الاعلى . وحول هذه الطاقية يلفون ثلاث او اربع لغات قطعة من الشاش والعمامة) . وتقرا في كتاب سالينيك (رحلة الى اورشليم ، ج 8 ، ف 2) :

Itinerarium Hierosol. VIII, cap. 2

« انهم يكتسون بجلود الحيوانات وبطاقية عالية ، مثل الاتراك » . ويجزم دلشور فون سيدلتز ، في كتابه : (وصف حقيقي دقيق لزيارة الاماكن المقدسة ، ص 361) : « Gründliche Beschreybung der Wallfahrt » : « ان اطفال البدو يعدون بين الماشية وهم لابسون طاقية مديبة سنجابية اللون » .

ونجد في قصة هيلفريتش ، وصف رحلة مختصرة ، ص 379

« Hellfrich (Kurtzer unnd wahrhaftiger Bericht von der Reysz) :

« ان البدو يلبسون في رؤوسهم قبعة حمراء مديبة زياء (مزببة ، محوطة بقطعة من القماش الابيض » . (مسورة بالعمامة ؟) وفي قصة الامير رادزيغيل ، ص 38 ، الحج الى اورشليم

(Jerosolymitana peregrinatio)

ان الطيارة للبدويين Tiara (تاج البايا ، تاج قدماء الفرس) المذكورة ايضا . ونحن تقرا في رحلة مسكارا ص 112 ، قصة رحلة الى اورشليم :

(Relatione del Viaggio di Gierusalemme)

« انهم يضعون على رؤوسهم نوع قبعة عالية محرومة

(1) ابو ركوة امير من البيت الاموي في الاندلس . وقد حاول ان يخلع خليفة مصر الحاكم بأمر الله عن العرش ولكن خانته اتباعه وسلموه . راجع حول الموضوع فيما تراجعه هامر بركستال في كتابه (قاعة الرسم لاعظم سلاطين الاسلام ، ج 3 ، ص 345 - 346) :

« Hammer-Purgstall, Gemäldeaal groszer Mos-limischer Herrscher » :

وان فعل سمر ، في الصيغة الثانية ، يعني تثبيت مجرم بالمسامير على صليب وصلبه . ولما كان هذا الفعل كثير الذبوع لدى المؤرخين ومفسرا اسواء تفسير في القاموس ، فمن المحتم على ان ادخل بصدد هذا الموضوع في بعض التفصيلات . فان كلمة مسمار تعني القطعة المعروفة من احد المعادن . فكلمة مسمار تشير الى هذا الجسم المعدني . فنحن تقرا في رحلة ابن بطوطة (مخ دي كايانكوس ص 194) : « ثم صرفه واعطاه اموالا طائلة وفي جملة ما اعطاه جملة من صفائح الخيل ومساميرها . كل ذلك من الذهب الخالص . وقال له : اذا نزلت من البحر فانعل فرسك بها . وفي تاريخ مصر للنويري (مخ 7 ، ص 154) : عشرة مسامير من الذهب . وفي كتاب ابن بطوطة : مسمار فضة . وفي موضع آخر : مسامير الفضة . ومن هذه كلمة مسمار تعني القطعة المعروفة من احد المعادن . للنويري (مخ 2 ، ص 479) : اخرج فسمر على خشبة . وبعد ذلك (ص 482) يقول المؤرخ عن الشخص نفسه انزل شنشول عن خشبته . ونجد في تاريخ مصر للمؤلف نفسه (مخ 19 ، ص 138) : بات في ليلة الاثنين على خشبة التسمير . (وسأتحدث تاليا عن كلمة خشبة وجمعها خشبوعن مختلف مدلولاتها . راجع في كلمة طاقية التعليق (3) . ولكن ليس من الضروري اضافة كلمتي على خشبة او —

وسأشر بهذه المناسبة نصا لابن اياس ممتعا للغاية من عدة وجوه . فنحن نقرا فى تاريخ مصر (مخ 637 ، ص 16 وما جاء بعدها ، حوادث عام 787) لهذا المؤرخ من الحوادث ان السلطان رسم بابطال ما كان يعمل يوم النوروز . وهو اول يوم من السنة القبطية . ومما كان يعمل بالديار المصرية ذلك اليوم انه كان يجتمع فى ذلك اليوم السواد الاعظم من العوام وغيرهم من الاسافل . ويركبون منهم شخصا خليعا على حمار وهو عريان وعلى راسه طرطور خوص فيسونه امير النوروز ، ويكون ذلك قوى الطبع فيتوجه الى بيوت الاكابر واعيان الناس ويقف على الابواب ومعه السواد الاعظم من الاسافل فيكتب على صاحب تلك الدار الوصولات بالجمل الثقال وكل من امتنع من العطا بهدلوه وسبوه ولو انه اكبر من فى القاهرة . ولا يزالوا مرسمين على بابه حتى ياخذوا منه ما قرروه عليه وياخذوا منه ذلك القدر غصبا وكان منهم طائفة يقفون فى الطرقات ويتراشقون بالماء المنجس او بالخمير ويتراجمون فى وجوههم بالبيض ويتصافعون بالاخفاف على رقابهم ويتراجمون بعمائمهم حتى قيل فى المعنى :

(الطويل)

بداري رجال للجنون ترجلت

عمائمهم عن هامهم والطيالنس

فللراح ما زرت عليه جيوبها (جيوبها)

وللماء ما دارت عليه القلانس

مساحب من حر الزقاق على القفا

وصفع بانطاع حبي ريبالس (كذا) .

وكانوا يقطعون الطريق على الناس ويمنعونهم من الخروج فى ذلك اليوم الى الاسواق . وتلقى فى ذلك اليوم الدكاكين وتمتعل الناس عن البيع والشرى . وكل من ظفروا به فى الطريق بهدلوه ولو كان من اعيان الناس او من الامراء فيرشونه بالماء المنجس ويرجمونه بالبيض حتى يفدى نفسه منهم بشيء حتى يخلص من ايديهم فيحصل للناس فى ذلك غاية الضرر وتمتعل عن اسبابهم . وكانوا يتجاهرون ذلك اليوم بشرب الخمر وكثرة الفسوق فى اماكن المفترجات حتى يخرجوا فى اليوم عن الحد . وربما كان يقتل فى ذلك اليوم جماعة مما يعربدوا على بعضهم فى السكر والعيافة . وكان هذا الامر ماشي بمصر على القاعدة القديمة من الدولة الماضية ولا تنكر ذلك من ذلك (فى الدول الماضية ولا ينكر ذلك) وكان فى ذلك اليوم يحمل الى اكابر مصر من الاقباط والمباشرين اصناف الفواكه وغيره من جميع الاصناف . وكان يوم النوروز من اجل المواسم بمصر . فلما تسلطن الظاهر برقوق امر بابطال ما كان يعمل فى ذلك اليوم وارسل الحجاب مع والي القاهرة ومعهم المماليك السلطانية . فطافوا باماكن المفترجات وقبضوا على من وجدوه من العياق من يفعل ذلك وضربوه بالمقارع . وربما قطعوا ايدي جماعة منهم واشهروهم . واشهروا النساء بالتهديد على من يفعل ذلك بالشنق والتوسيط . فرجعوا الناس عن ذلك من يومئذ وانكفوا عما كانوا يفعلونه فى ذلك اليوم فى اماكن المفترجات ونحو ذلك

على خشب للتعبير عن تسمير احد على صليب . فان فعل سمر يكفي للاعراب عن الفكرة ، فكرة هذا النوع من التعذيبسمى تسميرا . فنحن نجد فى تاريخ مصر للتوبري (مخ 2 ، ص 170) : فطولع السلطان فى امرهم وامر بتسمير الخمسة تسمروا تحت القلعة . وشفع بعض الامراء فى اطلاق المرأة . واطلقت وفكت المسامير فماتت بعد ايام . وفى موضع آخر (ص 186) امر بتسمير جماعة كانوا معتقلين بخزانة البنود . وفى مجلد آخر من نفس الكتاب (مخ 2 ، ص 108) : سمروه وطافوا به المدينة .

لا مناص لي من نشر النص بأكمله . وسأحملك مرة أخرى على ملاحظة ان احتفالا مثل هذا يقام في بعض انظار الشرق ، في مطلع شهر رمضان . راجع وصف احد هذه الاحتفالات في كتاب تيفنو ، ص 287 ، 279 ، حكاية رحلة الى المشرق :

« Relation d'un voyage fait au Levant » : واعتقد ان المعنى هو الطرطور في النص التالي لتيفنو في كتابه المذكور ، ص 69 ، الذي وصف الزينة في حلب (2) بالعبارات التالية : « ان اجمل ما في هذه الزينات هو رؤية مسيرة اصحاب الحرف . فقد بدأت هذه المسيرة بمرور الاساكفة الذين كانوا يمشون بنظام . وقد انطلقت المسيرة باديء ذي بدء بتقديمها

وهذه الواقعة ذكرها المقرئ من حوادث سنة سبع وثمانين وسبعمائة (1) .

وليس هناك ادنى ريب في ان ابن اياس يلعب هنا الى كتاب السلوك للمقرئ ، وهو السفر الذي خلت منه مكتبة ليدن والسفاه !

ولعل اناسا سيتناولوني باللوم على نشري وترجمتي للنص بتمامه : ولكن يخيل لي ان من الغرابة كل الغرابة العثور في الشرق على عيد يشابه، مهما كانت المشابهة ضئيلة ، عيد مجانين العصر الوسيط والكرنفال ، بحيث استطع ان اقرر نشر بضع فقرات فقط من هذا النص ... لذلك كان

تعليق (1) .

- (* راجع حول كلمة خليع فليشر في كتابه السالف ص 95 .
- (* راجع كذلك لين الف ليلة وليلة ، ج 2 ، ص 377
- (* ان فعل بهدل يعني اهان . راجع الف ليلة وليلة ، 7 هابتخت ، ج 6 ، ص 143 ، وقويميس الكلمات المضاف الى المجلد السابع من هذا الكتاب . ونحن نقرا في موضع آخر من كتاب ابن اياس (ص 386) ثم قال السلطان) ايش اعظم ما تبهدوا به الناس عندكم . قال نريميهم بشياهم في الماء . وارى ضرورة احلال كلمة تبهدلوا محل كلمة تبهدوا ، وتوجد كلمة بهدلة في نص آخر من كتاب المؤلف المذكور . فنحن نقرا فيه (ص 452) . وقد حصل للقاصد من العوام غاية البهذلة من السب والرجم وغير ذلك .
- (* يجب اضافة التصريف السادس من فعل رش الى القاموس . وكذلك التصريف السادس من فعل صفع .
- (* لقد حذف البيت الثالث لانني اعترف صراحة اني لا افهم شيئا منه مطلقا ، والمخطوطة كثيرة الاخطاء في هذا الموضوع .
- (* لا وجود لكلمة مفترجات في القاموس . وفي نص آخر من مخطوطة ابن اياس (ص 296) توجد هذه الكلمة مكتوبة مشكلة على هذه الصورة مفترجات . ونقرا فيه : وكان يجب التنزه والمفترجات (الماهرات) . ونجد في موضع آخر (ص 74) « ان احدا لا يخرج الى المفترجات قاطبة (منع ذلك السلطان) . وبعد ذلك (ص 297) : وقد تقدم ما كان يقع له في المفترجات . واخيرا (ص 415) : « وهو كلام ملحن مطول . وصاروا يغنون به في اماكن المفترجات » . ويجب علي ان احملك على ملاحظة انني لم اجد هذه الكلمة لدى اي مؤلف آخر ، وان المؤلفين الاوربيين ، الذين يذكرون في معظم الاحيان الاسم الذي كانت تحمله المومسات في زمانهم في الشرق لا يسمونهن ابدا مفترجات .
- (* لا وجود لفعل شهر بهذا المعنى في القاموس ، الا في التصريف الثاني . ولكن التصريف الرابع يعبر احيانا عن نفس الفكرة . فنحن نقرا في موضع آخر من كتاب ابن اياس (مخ ، ص 66) : سمرهم واشهرهم في القاهرة . وبعد ذلك (ص 180) : اشهرهم في القاهرة على جمال . وفي موضع آخر (ص 416) : ضربه المقارع واشهره في القاهرة . وفي مجموعة القطع المختارة الخاصة بالدروز (لدى دي ساسي ، طرائف عربية ، ج 2 ، ص 90 من النص) : اشهارك بالقاهرة المقدسة وبشوارع مصر وارقتها .
- (* راجع حول العذاب الفظيع المسمى بالتوسيط سيلقيستر دي ساسي ، طرائف عربية ، ج 1 ، ص 468 وكذلك كاترمير ، تاريخ السلاطين المماليك ، ج 1 ، ق 1 ، ص 72 . وعلاوة على ذلك بمقدوركم مراجعة اتيين دي كنبير وغيره .
- (2) راجع حول كلمة « زينة » كاترمير (تاريخ السلاطين المماليك ، ج 1 ق 1 ، ص 29) .

والطرطور يلبسه كذلك الفرسان الاتراك الذين يطلق عليهم كلمة دلي Delis (راجع بركنهارت ، الامثال العربية ، الرقم 149 ، حول مثل : جندي ما قبل شيع طرطوره) .

اما عن طرطور اترك مدينة الجزائر فبوسعكم مراجعة الوصف الدقيق الذي ديجته براءة ديكيو دي هيدو في كتابه (خطط مدينة الجزائر : ص 20 ، مج 3 و 4) .

وهذا المؤلف يكتب الكلمة على هذا الشكل :
تورتورا : Tortora .

الطلس

يذهب القاموس اط كلكتا ، ص 772) الى ان الطلس هو (الطيسان الاسود) (2) .

الطيلسان - الطيلسان

ان التفاصيل التي اوردها حول كلمة طرحة تجيز لي الاجاز في معرض التحدث عن الطيلسان .

يقول لين (الف ليلة وليلة - ج 2 - ص 512) عن الطيلسان ما يلي : « لم تتح لي الفرصة ابدا لفحص الطيلسان وعلى ذلك فليس بمقدوري ان اصفه وصفا دقيقا . ولكنني اعتقد انه نوع بسيط من الخمار الذي يطرح على الراس والكتفين . او يلقي احيانا على الكتفين فقط . وهو خاص بالفقراء او بأساتذة الفقه والشريعة (3) . وهذه التفاصيل صحيحة ودقيقة - وبوسعكم الاقتناع بالرجوع الى مقالتي عن الطرحة .

وقديما كان الطيلسان لا يابس الا من قبل علماء الشريعة - ومن هنا جاء التمييز الوارد في كتاب ابن حبيب (مج 425 - ص 383) : اهل السيف والطيلسان - ولكننا راينا آنفا ان الطرحة قد ارتداها ايضا كبراء مصر - ابتداء من عام 676 فانقطعت عن كونها لا تلبس الا من قبل القضاة واولئك الذين لم يكونوا يمارسون الا سلطة روحية وقضائية .

رهط من الصبان الذين كانت رؤوسهم مغطاة بطراطير ورقية مديبة على هيئة قوالب السكر (1) Pains de sucre . وما يزال الدراويش يلبسون الطراطير . اذ يقول لين بصراحة في كتابه (المصريون المحدثون ، ج 1 ، ص 369 ، ج 2 ، ص 190) ان بعض الدراويش يلبسون الطراطير او الطاقيات العالية المميزة قممها بقنازع من قطع الجوخ المختلفة الالوان ، والتي عادة لها شكل قوالب السكر . وانني اقرا في رحلة ستوكوف الى المشرق ، ص 433 ، وهو يتحدث عن دراويش القاهرة :

« كان واضعا على راسه طاقية معمولة على هيئة قالب سكر مغطاة كلها بالآلاف الريشات الصغيرة من مختلف الالوان » . وفي حكاية كوبان Coppin ا درع اوربا ، ص 131 (Le Bouclier de l'Europe) « يلبس الدراويش طاقية مشغولة على هيئة قالب سكر » . وفي يوميات اسفار دي مونكونسي ، ج 1 ، ص 167 : « انهم يضعون على رؤوسهم طاقية فخمة من اللباد الوردي المعمول على هيئة قالب السكر ، وكانت احدهما تشابه كل المشابهة تاج الاسقف او البرطل او الطابية ، وتحف بها نقوش على صورة ازهار خضراء زاهية اخاذة ، وقد وجدت احدي الطاقيات الملقوفة عليها لفافة بيضاء كتلك التي تكور بها العمامة » . انظر للمقارنة الصورة المرقمة 19 ، الملتصقة في الصفحة 346 من الجزء الاول ، وتمعن كذلك في الشكل الموجود في كتاب بوكوك ، رحلة الى الشرق ، ج 1 اللوحة 58 .

ولعل من المحتمل الراجع ان دراويش سوريا يلبسون كذلك الطاقيات العالية المسماة بالطراطير ، وهذا مؤيد بشهادة روجيه فكتابه (الارض المقدسة ، ص 245 245 La Terre Sainte , p.) يقول : « انهم يعناضون عن العمامة بالطاقية البيضاء المشغولة من اللباد الذي يصل سمكه احيانا الى عقدة وارتفاعه الى قدم » . ويقول دارفيو D'Arvieux كذلك في كتابه (مذكرات ، ج 6 ، ص 465) وهو يتحدث عن دراويش حلب : « ان ما يميزهم عن سواهم هو طاقية من الصوف الابيض ، مفرطة في الطول ومديبة كل المدينة » .

(1) قالب السكر ما نسميه نحن (كلة السكر !) .

(2) لعل المؤلف اراد ان يكتب (الطيلسان) فخط (الطيسان) . (المترجم) .

(3) ويضيف قائلا : « انني ميال للظن بان الطيلسان شبيه بأوشحتنا وقلانسنا الاكاديمية - ليس من ناحية المظهر فحسب - وانما من جهة الاصل .

الطاق

يذهب القاموس (ط كلكتا ، ص 1307) الى ان الطاق هو الطيلسان او بالاحرى الطيلسان الاخضر (ضرب من الثياب والطيلسان او الاخضر) .

الطاقية وجمعها الطواقى

لا وجود لهذه الكلمة فى القاموس .

وتعني فى اللغة العربية كلوتة صغيرة تلبس تحت العمامة . ولعلها من اصل فارسي - ولكنني يجب ان احملكم على ملاحظة ان الكلمة لا تشير فى فارس الى كلوتة صغيرة - ولكنها توميء على ما يبدو الى نوع عصاية توضع على الرأس .

يقول مير خوند Mirkhond (ص 66 - تاريخ السلاجقة) فى معرض حديثه عن السلطان السلجوقي الب ارسلان « وطاقية » نيزين سرامي نهاد كويندكه از سر طاقيه تانهايت لحيه ، او دو كز در نظر بيننده آمدي » . اما خوندمير Khondemir (حبيب السير ، ج 2 ، مخ فارسية 296 ، ص 204) فيقرر نفس الواقعة بهذا الكلمات : « وطاقيه طولاني (اقرأ نيز) بر سر ميكداشت - خانجه بيننده از بدايت طاقيه تانهايت لحيه دو كرمى بينداشت » (1) . وهذا النص الاخير يجب ان يترجم على هذه الصورة « كان يلبس فى راسه طاقية طويلة - بحيث ان من يرى هذا الانسان يلمح ذراعين من الطاقية - انطلاقا من موضع عقد هذه حتى اللحية » . والجدير بالملاحظة ان مير خوند وخوندمير يعدان الطاقية من بين الصفات الحسنة - بل من بين الصفات الاخلاقية العالية للسلطان . ومع ذلك فاني اعتقد ان ابن بطوطة (الرحلة مخ دي كايانكوس - ص 82) حين يقول - فى مقاله عن اصفهان « وطلبت منه ان يلبسني طاقية من راسه » كان الموضوع فى هذا النص موضوع عرقية او كلوتة - ذلك ان هذا على الدوام هو معنى هذه الكلمة لدى الكتاب العرب . فنحن نقرأ فى وصف مصر للمقرئبي (ج 2 ، مخ 372 ، ص 358) النص التالي - العظيم الاهمية « سوق البخاتيين هذا السوق فيما بين سوق الجمولون الكبير وبين قيسارية الشرب الاتي ذكرها

وكذلك شأن الطيلسان . فنحن نقرأ مثلا فى تاريخ مصر لابن اياس (مخ 367 - ص 41 - 42) « فلما وقعت عينه على الملك الظاهر جرى وقبل يده وقال للظاهر برقوق : « انت استاذنا كلنا ونحن مماليكك قاطبة » . ثم ان برقوق قام ولبس عمامته ولف عليها طيلسانا كبيرا » .

ونقرأ فى نص للسيوطي (حسن المحاضرة ، مخ 113 ، ص 308) « ان الطيلسان المقصور كان يعطى كلباس تشريف (خلعة) لامير الجيوش » .

وفى رحلة محمود بن جبير (مخ 320 - ص 46) نجد ان الخطيب فى مكة كان يرتدي الطيلسان من الكتان الرقيق (عليه طيلسان شرب رقيق) . ويذهب ابن بطوطة (الرحلة - مخ دي كايانكوس ، ص 64) الى ان الطيلسان كان اسود اللون (عليه طيلسان اسود) .

وفى الاندلس كان الطيلسان معروفا على وجه الاجمال .. كان معروفا وشائع الاستعمال بصورة عامة بين الكبراء ولدى عامة الشعب - ولكنه كان يرتدى فوق الكتفين - ولم يكن يضعه على الراس الا شيوخ المشايخ (المقرئ - او بالاحرى ابن سعيد - لدي فريثاك - طرائف عربية ونحوية وتاريخية - ص 148) . ولا ريب ان هذا الخمار هو الطيلسان الذى نرى الشيخ العجوز يرتديه وسط اللوحة 65 من كتاب Cavanah Murphy الرائع : « الآثار العربية فى اسبانيا :

« The Arabian Antiquities of Spain »

وتقع فى كتاب ريحان الالباب (مخ دي كايانكوس) على النص الذى يبعث على التأمل والملاحظة : « ثم مات هشام - ويقال بل قتله المعتضد - ومشى فى جنازته دون طيلسان راجلا مشي الحجاب » .

ويتحدث حاجي خليفة (ط فلوكل - ج 1 - ص 162) عن كتاب معنون : « الاحاديث الحسان فى فضل الطيلسان » . وهناك نسختان من هذا الكراس فى مكتبة الاسكوريال .

(1) يجب اضافة فعل بينداشتن الى المعجم الفارسية .

الطواقي المستديرة العالية . وهذه الطواقي ضيقة من الاسفل وعريضة من الاعلى - والجزء الواطيء منها مصنوع من المخمل ومن نسيج آخر - اما الجزء الاعلى فمشغول من الصوف الاخضر الرديء . فاذا لم اكن متوهما - فان بيير مارتير السفير الفرنسي لدى قنصوة الغوري عام 1501 يتحدث في كتابه (سفارة بابلية - ص 401) عن الطاقية ايضا . واليك كلماته : « ان المالك الذين هم في خدمة السلطان يلبسون طواقي من الصوف - وهي ثقيلة الوزن وقاسية اللمس - وتتألف من لونين مختلطين - اللون الاول الاخضر في الاسفل - واللون الثاني الاسود في الاعلى » .

وبالرغم من انطباق هذه الاوصاف بعض الانطباق على اوصاف المقريري - فاني ارى من المحتم علي ان اعترف بان التفاصيل ليست هي نفسها بالضبط (ولكن ما لنا لا نفترض ان طاقية المالك كانت عرضة لتحويرات اقتضتها الطرز المستحدثة ؟ الم يخبرنا المقريري نفسه ان طاقية المالك قبل حكم المللك الناصر فرج كانت تختلف اختلافا جوهريا عن الطاقية التي يلبسها هؤلاء المالك في عهده) .

وفي ايماننا هذه تشير كلمة طاقية في مصر الى نفس ما تشير اليه العرقية - اي الى كلوتة صغيرة من القطن تلي الراس تماما - كما يقول لين (المصريون المحدثون ، ج 1 ، ص 41) . ويرتديها افراد الجنسين تحت الطربوش (المرجع السالف - ص 58) الذي حوله تلف قطعة من القماش - وعلى هذه الصورة تشكل العمامة . ويكتب ج فيسيكه (رحلة الى الشرق ، ص 182) الكلمة هكذا Takie - وهي في نظر الرحالة « عرقية صغيرة من القطن المنقوش الذي يكون عادة مزركشا ومطرزا بنقوش غاية في الابداع والنفاسة » . بل يذهب بركهارت في كتابه عن الامثال المصرية المحدث (الامثال العربية - رقم 101) الى القول بان هذه الكلمة تشير الى عرقية او كلوتة بيضاء مصنوعة من القطن الناعم المطرز الحواشي عادة - وهي تلي الراس مباشرة وتلبس تحت الطربوش الاحمر » . ويتحدث بوكوك كذلك في كتابه (وصف الشرق ، ج 1 ، ص 328) عن الكلوتة الصغيرة البيضاء المعمولة من الكتان التي تستعمل لتغطية الدماغ او تلبس تحت الطربوش . وبهذا المعنى كانت هذه الكلمة شائعة الاستعمال في زمان كتابة الف ليلة وليلة . فنحن نقرا في هذا الكتاب (ط مكناتن ، ج 1 ، ص 172) : « فنظروا

ان شاء الله تعالى عند ذكر القياسر . وباب هذا السوق شارع من القصبة ويعرف بسوق الخشبية تصفير خشبة فانه عمل في باب المذكور خشبة تمنع الركاب من التوصل اليه . ويسلك في هذا السوق الى قيسارية الشرب وغيرها . وهي معمورة الجانبين بالحوانيت المدة لبيع الكواقي والطواقي التي يلبسها الصبيان والبنات . ويظاهر هذا السوق ايضا في القصبة عدة حوانيت لبيع الطواقي وعملها . وقد كثر لبس رجال الدولة من الامراء والممالك والاجناد ومن يتشبه بهم للطواقي في الدولة الجركسية وصاروا يلبسون الطاقية على رؤوسهم بغير عمامة ويمرون كذلك في الشوارع والاسواق والجوامع والمواكب لا يرون بذلك بأسا بعد ما كان نزع العمامة عن الراس عارا وفضيحة . وتوعوا هذه الطواقي ما بين اخضر واحمر وازرق وغيره من الالوان . وكانت اولا ترتفع نحو سدس ذراع ويعمل اعلاها (مدور مسطح) . فحدث في ايام المللك الناصر فرج منها شيء عرف بالطواقي الجركسية يكون ارتفاع عصابة الطاقية منها نحو الثلث ذراع واعلاها مدور مقبب بالفواقي يتطين الطاقية بالورق والكثير فيما بين البطانة المباشرة للرأس والوجه الظاهر للناس . وجعلوا من اسفل العصابة المذكورة زيقا من فرو القرض الاسود يقال له القندس في عرض نحو ثمن ذراع يصير دائما بجهة الرجل واعلا عنقه . وهم على استعمال هذا الزي الى اليوم . وهو من اسمج ما عانوه . وتشبه بالرجال في لبس ذلك النساء لمعنيين احدهما انه فشا في اهل الدولة محبة الذكران فقصد نسائهم التشبه بالذكران لتستملن قلوب رجالهن . فاقتمدى بفعالهن في ذلك عامة نساء البلد . وثانيهما ما حدث بالناس من الفقر ونزل بهم من الفقر والفاقة . فاضطر حال نساء اهل مصر الى ترك ما ادركنه فيهن النساء من لبس انذهب والجواهر بل ولبس الحرير حتى لبسن هذه الطواقي وبالغن في عملهن من الذهب والحرير وغيره وتواصلين على لبسها . ومن تأمل احوال الوجود عرف كيف تنشأ امور الناس في عاداتهم واخلاقهم ومذاهبهم » .

ولعل مؤلف رحلة فان خيستلا (ص 48) يتحدث عن الطاقية - وكان زار مصر عام 1481 - اي بعد وفاة المقريري باربعين سنة - فعبّر عن خواطره في معرض الكلام عن الممالك بالكلمات التالية : « ثمة ناس يضمون على رؤوسهم البيربهات - اي